وسائل للنصب والشفاء معاً!

في معظم الأحيان لا تكون "المشكلة" في المبدأ ولكن في تحويره أو تحريفه. في اتخاذه سلماً لأغراض دنيئة تحت غطاء "الأصل" الذي لا غبار عليه ولا اعتراض. يصدق هذا الواقع على ثلاثي: "الرقية والحجامة والكي".

هل ينكر مسلم آية من القرآن تنص: "فيه شفاء للناس"؟ أو يجحد أخرى تقول: "وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين"؟ أم يكذب أحاديث صحيحة عن جواز الرقية وأخذ الأجر عليها؟ لا أحد يجادل في كل تلك المسلّمات، غير أن الجدال كله فيمن يتخذونها ذرائع لانتهاكات في أنحاء شتى.

الأمر مختلف في الحجامة والكي قليلاً، فعلى الرغم من مشروعية الطريقتين إلا أن الجدل حول بقاء الحاجة إليهما بعد تقدم الطب لا يزال قائماً وشائعاً، بيد أن النقاش الآن: هل باتت وسائل الشفاء في الأصل "الرقية، والحجامة، والكي" ذرائع للنصب بعد أن كانت الأولى أول الطب والثانية وسطه والثالثة آخره؟

معجزات للتسويق!

في السعودية يجمع العلماء على تفضيل أن يرقي الإنسان نفسه من دون بحث عن "وسيط بينه وبين ربه"، لكن الباحثين عن "الأولياء" أو الأطباء الدينيين لا يصغون إلا لعروض مغرية من قبيل وصف أحدهم لبلائه الحسن في هذا الصدد قائلا:"رقيت أدواء مستعصية. عالجت السرطان. رقيتها فأنجبت. كانت مسحورة ميئوساً منها فرقيتها فعادت كأن لم تُصب بأذى".

وأي حديث عن الرقاة بالهواتف، والموزعين لبركة "تفلاتهم" على ذبذبات مكبرات الصوت، والنافثين في براميل المياه كسباً للمال والوقت، يعد مكروراً.

وشاهدت "الحياة" عند أحدهم كيف يرتفع سعر جالون يزن (٥) كلجم من (١٠) ريالات إلى (١٨٠) ريالاً بفعل نفث حضرته.

وإذا كان رقاة في الرياض اشتهروا بصلاحهم وتقواهم وتقبل الميسور من قاصديهم، فإن آخرين أكثر عدداً في مناطق أخرى اشتهروا بلي ذراع المصابين بـ "العين والسحر" الذين تشكل النساء غالبيتهم.

وعلى الرغم من أن عضو هيئة كبار العلماء في السعودية الدكتور عبد الله المطلق أعلن في مؤتمر عن الطب الشعبي، نظم في مستشفى التخصصي في الرياض عام ٢٠٠١ اهتمام هيئة كبار العلماء بـ"هذا الملف"، إلا أنه لا يزال الأمر كما كان.

الطب البديل في الصحة يقنن "الحجامة"

أما "الحجامون" فإن العروض أقرب إلى الباحث عنها من حبل الوريد، خصوصاً إذا كان المرء من هواة المغامرة، بأن يرهن صلعته إلى شخص، يمسك الموسى بيدٍ والمحقان بيد أخرى.

وإذا كان الحلاقون في شوارع معروفة اعتادوا على استضافة "المغامرين" على كراسي الحلاقة نفسها، فإنهم لا يلامون بالقدر الذي تلام فيه "وزارة الصحة" التي لا تقصر في المنع، بيد أنها "قصرت كل التقصير في إيجاد قانون ينظم ممارسة الحجامة، مثلما هو متبع في دول عربية مجاورة"، كما يقول أحد المهتمين.

المتحدث الرسمي عن وزارة الصحة الدكتور خالد مرغلاني أشار إلى أن " الوزارة لم تمنح أي منشأة التصريح بممارسة الحجامة، ولا يزال الموضوع قيد الدراسة في إدارة الطب البديل في مراحله الأخيرة"، بينما الدكتور عبد الله البداح من الإدارة نفسها رفض الحديث عن الموضوع إلى حين آخر، معللاً بأنه "خارج المملكة والحديث عن الموضوع يحتاج إلى سواليف".

الكي مؤلم نفسياً ومكروه شرعاً

أما الكي فإنه لا يبدو في الوقت الراهن له موقع في الممارسة الميدانية، باستثناء حالات شاذة. ويعود ذلك إلى "انتفاء الحاجة إليه" كما يرى مرغلاني. إضافة إلى الجدل الشرعي حوله منذ القديم، إذ وردت أحاديث عدة عن "الكي" قال الداعية السعودي

محمد بن صالح المنجد "هي على أربعة أقسام: دالة على الجواز، ومبينة عدم محبة النبي صلى الله عليه وسلم له، وقسم ثالث يثني فيه على تاركه، وآخر رابع يدل على كراهته عليه الصلاة والسلام له".

وأضاف: "بهذا يتم الجمع بين الأحاديث، فالنهي عنه يدل على كراهته، وأحاديث فعله تدل على جوازه إذا احتيج إليه (...) أما سبب كراهيته فلما فيه من تعذيب النفس وإيلامها".

وأما واقع الاهتمام بالحجامة كوسيلة علاجية "شعبياً وشرعياً" فتشبهه الكاتبة سميحة بنت علي مراد بمن "أغلق باب الدار وجلس أمامه يتسول من كل رائح وغاد.. بعد أن ترك بداخله ثروات وكنوز موضوعة في صناديق، ولكنه تكاسل عن فتحها واستخراجها واستسهل أن يعيش على بقايا الآخرين.. وفجأة مر به من أعطاه، فوجد ما أعطاه شيئا رآه من قبل في مخازن والده. فانتبه لذلك وعاد إلى كنوز أبيه يبحث فيها؛ فوجد من الثروات ما يغنيه عن التسول من الآخرين. فالحمد لله الذي هداه".

وزادت "الحجامة معروفة منذ القدم، عرفها الصينيون والبابليون والفراعنة، ودلت آثارهم وصورهم المنحوتة على استخدامهم لها في علاج بعض الأمراض، وكانوا في السابق يستخدمون الكؤوس المعدنية وقرون الثيران وأشجار البامبو لهذا الغرض، وكانوا يفرغونها من الهواء بعد وضعها على الجلد عن طريق المص، ومن ثم استخدمت الكاسات الزجاجية التي كانوا

يفرغون منها الهواء عن طريق حرق قطعة من القطن أو الصوف داخل الكأس. ولما جاء رسول الله ﷺ ووجدها في قومه أقرها، بل وتعالج بها وقال إنها خير ما يتداوى به الناس. وقال عليه الصلاة والسلام: "ما مررت بملأ من الملائكة ليلة أسري بي، إلا قالوا: عليك بالحجامة. وفي لفظ: مر أمتك بالحجامة".

وحتى ينظم تعاطي "الحجامة" تظل وسيلة علاجية فعالة، لكنها محفوفة بـ "المغامرة والمخاطرة"، كما تبقى "الرقية" وسيلة علاج شرعية، تعاني تجاوزات ودخلاء. فيما يبقى "الكي" المكروه قديماً، والمنبوذ حاضراً.